

كنوز الحكمة  
أيوب 22:28-8:26

▪ الدرس الخمسة والخامس والستون

نواصل تأملاتنا في سفر أيوب والتي بدأت الآن تأخذ مجرىً مختلفاً. فقد انتهينا سابقاً من جولات النقاش والصراع بين أيوب وأصدقائه، وتركنا أيوب يتحدث حديثاً مطولاً عن عظمة الله الخالق. لا بد لي قبل متابعة الدرس أن أعيده على مسمعك باختصار ما مر بنا سابقاً. رأى أيوب الأشرار واستغرب أن يكون وهو البار في هذه الحالة الأليمة، بينما ينعمون هم بالخير. فالأشرار يبدون وكأنهم مرتاحون ولا أحد يرى قصاص الله لهم، فهم يموتون كبقية الناس. أما أيوب فقد كان يتعذب ويسأل: لماذا؟

في الفصل الخامس والعشرين من أيوب، استمعنا الى حديث بلدد الأخير الذي أخذ يعظم اسم الرب. موارد الله كثيرة تفوق العقل وجنوده وخدامه لا عدد لهم، ونوره يشرق على الجميع. فكيف يمكن للإنسان أن يقف أمام الله ليتبرر، فهو يساوي لا شيء قدام الله المطلق والعظيم. ثم يعطينا صورة قبيحة للإنسان أنه رمة ودود. هذا يبين فساد الطبيعة البشرية وعجزها. فكيف إذاً، يمكن لمولود المرأة أن يتطهر في عيني الله؟ في المسيح، في الخليقة الجديدة التي يصنعها المسيح.

بدأنا نتأمل في الفصل السادس والعشرين في أطول خطاب لايوب، قال لأصدقائه بأنهم لم يعينوه أو يشفوا غليله ولم يجيبوا على أسئلته. أقوالهم كانت صحيحة ورائعة ولكنها لا تناسب أيوب ولا ظرفه. شدد أيوب على عظمة الله في خليقته وسلطان الله الظاهر لكل عين. فهو يمد يده على هذا الفضاء الفسيح الذي لا يخلو من الكواكب والنجوم التي تمجد الله وتخبر بعمل يديه. وهذه الكواكب التي تسيح في الفضاء الله ينظم حركة سيرها حتى لا تصطدم ببعضها البعض، ويفصل بينها بالفضاء، بالخلاء أو الفراغ. قد يكون هذا الفضاء لا شيئاً بالنسبة لبعض العلماء إلا أن الله خلقه وهو جزء من نظام الله المحكم الذي يفصل الأجرام السماوية عن بعضها البعض كما ذكرت، بل ويمسك النظام الفلكي بأكمله. الله هو العالم الأعظم الذي يعلق الأرض على لا شيء، بل يمسكها بيده.

تتابع ما تبقى الفصل السادس والعشرين من أيوب، وسنتأمل الليلة بنعمة الرب حتى نهاية الفصل الثامن والعشرين. يقول العدنان الأخيران الثالث عشر والرابع عشر من الفصل السادس والعشرين ما يلي: " **بِنَفْخَتِهِ السَّمَاوَاتُ مُسْفَرَةٌ وَيَدَاهُ أَيْدَانَا الْحَيَّةُ الْهَارِبَةُ. هَا هَذِهِ أَطْرَافُ طُرُقِهِ، وَمَا أَخْفَضَ الْكَلَامَ الَّذِي نَسْمَعُهُ مِنْهُ وَأَمَّا رَعْدُ جَبْرُوتِهِ فَمَنْ يَفْهَمُ؟** ". لقد فرس الله السماء بالنجوم، ولربما تكون الحية الهاربة التي يذكرها أيوب هنا اسماً لمجموعة من النجوم المترامية في الفضاء. أيوب هنا يدعونا أن نتأمل في عظمة الله كما تكشفه لنا السموات في خليقته الرائعة. وكل هذه العظمة والروعة والقدرة يسميها أيوب أطراف طرقه، فما هي إلا قليل من كثير صنعه، ويسميها كلاماً منخفضاً، همساً، فكم بالحري إذا أردد بجبروته؟ مجدداً لاسمه. يمكننا أن نلاحظ إذاً، أن أيوب كان يعرف الله كخالق ويفهمه كالفادي الولي ولكنه لم يكن يعرف الله كالمثبت والماسك بيمينه الأمور والذي يحبه. لم يكن يعلم أنه ما كان الله ليسمح له أن يمر بكل هذه الصعوبات لو لم تكن في جعبته دروسٌ ثمينة لأيوب. على كل حال الأمور لم تنته بعد ولا بد من متابعة السفر.

هذا يأتي بنا الى الفصل السابع والعشرين من أيوب. ها نحن نقترّب من المادة الأساسية في السفر، وها سفر أيوب يدخل الى صميم حياتنا من الداخل، والى واقعها. فتحت أنقاض الآلام التي كان أيوب يكابدها يوجد درسٌ ثمين ليتعلمه. لهذا السبب قلنا في البداية إن المغزى الرئيسي لسفر أيوب ليس تألم البار أو المؤمن، فالألم ليس هو

الموضوع الرئيس للسفر، إذ أنه يخفي وراءه تعليم التوبة، التوبة في حياة المؤمن. من منا لا يحتاج الى التوبة، الى الرجوع الى الطريق الصحيح في علاقتنا بالله؟ المشكلة في أيوب أنه وصل الى درجة الاتكال على النفس بحيث أنه يحتاج الى التوبة. كان يبحث عن حل لمشكلته وسبب لألمه، ولم يكن يفكر أنه يحتاج الى التوبة، ولكنه لن يبقى كذلك كما سنرى. كل شخص مكتفٍ بذاته يحتاج أن يتوب أمام الله. هذا هو الدرس العظيم الذي يجب أن نتعلمه من سفر أيوب.

نقرأ من الفصل السابع والعشرين من أيوب الآيات العشر الأولى..

1 **وَعَادَ أَيُوبُ يَنْطِقُ بِمَثَلِهِ فَقَالَ: 2 حَيُّ هُوَ اللَّهُ الَّذِي نَزَعَ حَقِّي، وَالْقَدِيرُ الَّذِي أَمَرَ نَفْسِي، 3 إِنَّهُ مَا دَامَتْ نَسَمَتِي فِيَّ، وَنَفَخَهُ اللَّهُ فِي أَنْفِي، 4 لَنْ تَتَكَلَّمَ شَفَتَايَ إِثْمًا، وَلَا يَلْفِظُ لِسَانِي بَعْشًا. 5 حَاشَا لِي أَنْ أُبَرِّرَكُمْ! حَتَّى أُسَلِّمَ الرُّوحَ لَا أَعْزِلُ كَمَالِي عَنِّي. 6 تَمَسَّكْتُ بِبِرِّي وَلَا أَرْخِيهِ. قَلْبِي لَا يُعَيِّرُ يَوْمًا مِنْ أَيَّامِي. 7 لِيَكُنْ عَدُوِّي كَالشَّرِّيرِ، وَمُعَايِدِي كَفَاعِلِ الشَّرِّ. 8 لِأَنَّهُ مَا هُوَ رَجَاءُ الْفَاجِرِ عِنْدَمَا يَقْطَعُهُ، عِنْدَمَا يَسْلُبُ اللَّهُ نَفْسَهُ؟ 9 أَفَيَسْمَعُ اللَّهُ صُرَاخَهُ إِذَا جَاءَ عَلَيْهِ ضَيْقٌ؟ 10 أَمْ يَبْتَئِذُ بِالْقَدِيرِ؟ هَلْ يَدْعُو اللَّهَ فِي كُلِّ حِينٍ؟**

وكان أيوب يقول: لن أقبل الاتهامات التي انهلتم بها عليّ. كان أيوب قد طلب أن يُحاكم أمام الله وأن يترافع أمام محكمة القدير، وهو يحدّ هنا أن يقول الحق ولا شيء غير الحق: لن تتكلم شفّتي إثماً ولا يلفظ لساني بعش. لن أقبل اتهاماتكم أيها الأصدقاء بل على العكس من ذلك: **" حَاشَا لِي أَنْ أُبَرِّرَكُمْ! حَتَّى أُسَلِّمَ الرُّوحَ لَا أَعْزِلُ كَمَالِي عَنِّي "**. يمكنك أن ترى كم كان عنيداً أيوب، وأصدقاؤه زادوا من عنده وإصراره على تبرئة نفسه. وفي دفاعه عن نفسه لم يظهر انكساراً في الروح ولا تواضعاً. حتى في وقت المحن والمصائب كان متمسكاً بكماله وأخلاقه، ولكن بدا الأمر وكأن الله غير عادل، بينما أيوب على حق كامل: لا أعزل كمالتي واستقامتي عني. كما ويقول: **" تَمَسَّكْتُ بِبِرِّي وَلَا أَرْخِيهِ. قَلْبِي لَا يُعَيِّرُ يَوْمًا مِنْ أَيَّامِي "**. أصدقاؤه كما قلت لم يقودوه الى روح الانكسار والحكم على الذات بل الى الاعتداد بالذات وهكذا يتشبث ببره ولا يرخيه، وصار يقول بأن ضميره لا يؤنبه. وهذا كبرياء وارتفاع على الله، وكأنه يزيل الله من مسرح الأحداث، ولكن سنرى في النهاية أيوب منسحقاً في الرماد أمام الله. وفي كل هذا يوجد لنا درس عملي أحبائي. نعتزف أن الكثير من أقوال اصدقائه كانت حقيقية وسليمة، كما أنني لا أشك في دوافع هؤلاء الأصدقاء في معرض حديثهم لأيوب، ولكن يبقى القول بأن ما قالوه لم يكن كل الحق. بل تكلموا من خبراتهم وتجاربهم الشخصية، تكلموا من النواميس والقوانين البشرية، ولكنهم لم يقدموا الحق النقي لأيوب. وفشلهم في إظهار الحق الكامل جعل أيوب يعتد بنفسه ويعظم ذاته. اسمح لي أن أكرر هذا لأنه هام جداً. اعتقدوا أن أيوب يخفي خطية ما في حياته، وكانوا يحاولون أن يخرجوا هذه الخطية الى النور. أما أيوب فلم يكن قد ارتكب خطية واضحة وفاضحة، ولم يكن في علمه أنه أخفى شيئاً من هذا القبيل، وكان يعلم أنهم على خطأ. وبما أنهم على خطأ افترض أيوب أنه هو على صواب. وهنا تكمن غلطة أيوب. فكون أصدقائه على خطأ لا يبرره ابداً. كان عليه أن يكون في انكسار تام وهو في محضر الله. وتذكر أن واحداً من أهم أهداف التجارب والمصاعب في حياتنا هو أن يأتي بنا الى حالة من الانكسار والتواضع أمام الله. قال أحدهم: المتاعب كالشمس، فهي تذيب الشمع وتزيد قساوة الطين. هذا هو تأثير المصاعب على الناس، فالبعض يستجيب لها بانسحاق الروح والبعض الآخر يستجيب بالتصلب والكبرياء. وهذا ما حصل مع أيوب فقد ازداد تصلباً واعتداداً بالذات: ضميري لا يؤنبني على يوم من أيام حياتي. ويقول أيضاً: **" لِيَكُنْ عَدُوِّي كَالشَّرِّيرِ، وَمُعَايِدِي كَفَاعِلِ الشَّرِّ "**. تحول أيوب الى إنسان قاسي فطلب من الله أن ينزل قصاصه على الأشرار. وسط كل آلامه وأحزانه بدا الأخ أيوب يعظ علينا ويحاضر حول الأشرار وما سيحصل لهم. يقول بأن الفاجر لا رجاء له عندما يستأصله الله. وقد كان يعلن قصاص الله على الأشرار ليبرئ نفسه منهم، وليؤكد مرة أخرى أن بلاياه لم تنتج من خطاياهم.

عدد 19-21: " يَضْطَجُعُ عَيْنًا وَلَكِنَّهُ لَا يُضْمُّ. يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ وَلَا يَكُونُ. الْأَهْوَالُ تُدْرِكُهُ كَالْمِيَاهِ. لَيْلًا تَخْتَطِفُهُ الزُّوبَعَةُ. تَحْمِلُهُ الشَّرْقِيَّةُ فَيَذْهَبُ، وَتَجْرُفُهُ مِنْ مَكَانِهِ ". الشرير ينام غنياً لكنه يصحو فقيراً، وإذا بثروته لا تكون، لأنه لا يوجد ضمان أبداً. وماذا تكون النتيجة؟ يستولي عليه الخوف والرعب. وسيأتي يومٌ. " يَصْفُورُونَ عَلَيْهِ بِأَيْدِيهِمْ، وَيَصْفُورُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَكَانِهِ ". سيتسفى فيه الناس ويفرحون بسقوطه. صديقي، الحياة مهما كان غناها المادي فهي فقيرة روحياً، ومهما كانت عظمتها تبقى حقيرة، ومهما امتد طولها تظل قصيرة، والإنسان لا يأخذ منها معه شيئاً، ولا يمكن أن يرجو من وراء الخطية إلا الخراب والعذاب. فأرجو أن نتعلم من كل هذا دروساً لحياتنا.

انتقل أحبائي الى الفصل الثامن والعشرين من ايوب. يستمر ايوب في حديثه ليتغنى بخليقة الله في أحلى القصائد. قد لا تبدو شعراً بالنسبة لنا لكنها هكذا في اللغة الأصلية. لنقرأ من هذا الفصل الثامن والعشرين من الآية الأولى وحتى الحادية عشرة..

1«لَأَنَّهُ يُوجَدُ لِلْفِضَّةِ مَعْدَنٌ، وَمَوْضِعٌ لِلذَّهَبِ حَيْثُ يُمَحْصَوْنَهُ. 2الْحَدِيدُ يُسْتَخْرَجُ مِنَ الثَّرَابِ، وَالْحَجَرُ يَسْكُبُ نَحَاسًا. 3قَدْ جَعَلَ لِلظُّلْمَةِ نَهَائِيَّةً، وَإِلَى كُلِّ طَرَفٍ هُوَ يُفَحَّصُ. 4حَجَرَ الظُّلْمَةِ وَظِلَّ الْمَوْتِ. 4حَفَرَ مَنْجَمًا بَعِيدًا عَنِ السُّكَّانِ. 5بِلَا مَوْطِيٍّ لِقَدَمٍ، مُتَدَلِّينَ بَعِيدِينَ مِنَ النَّاسِ يَتَدَلَّلُونَ. 5أَرْضٌ يَخْرُجُ مِنْهَا الْخُبْزُ، أَسْفَلُهَا يَنْقَلِبُ كَمَا بِالنَّارِ. 6حَجَارَتُهَا هِيَ مَوْضِعُ الْيَأْفُوتِ الْأَزْرَقِ، وَفِيهَا ثَرَابُ الذَّهَبِ. 7سَبِيلٌ لَمْ يَعْرِفْهُ كَاسِرٌ، وَلَمْ تُبْصِرْهُ عَيْنٌ بَاشِقٌ، 8وَلَمْ تَدُسْهُ أَجْرَاءُ السَّيِّحِ، وَلَمْ يَعُدَّهُ الزَّائِرُ. 9إِلَى الصَّوَّانِ يَمُدُّ يَدَهُ. يَقْلِبُ الْجِبَالَ مِنْ أُصُولِهَا. 10يَنْقُرُ فِي الصُّخُورِ سَرَبًا، وَعَيْنُهُ تَرَى كُلَّ تَمِيمٍ. 11يَمْنَعُ رَشْحَ الْأَنْهَارِ، وَأَبْرَزَ الْخَفِيَّاتِ إِلَى الثَّوْرِ.

لقد وضع الله الفضة والذهب والنحاس في باطن الأرض، ولا شك أن هناك مناجم للفضة واستخراج الذهب، كما نعرف أن الحجارة الكريمة توجد في أعماق الأرض ولم نكتشفها كلها بعد، والظلمة في باطن الأرض لم تمنع الإنسان من الاستمرار في بحثه عن الكنوز. ترى عن أي كنوز تبحث اليوم؟ وما رأيك في كنوز الحكمة المنخرة في كلمة الله؟ هل تتقرب عنها باستمرار أم أنك تسمح لظلمة هذا الدهر أن تغمي قلبك عنها؟ " حَفَرَ مَنْجَمًا بَعِيدًا عَنِ السُّكَّانِ. 6بِلَا مَوْطِيٍّ لِقَدَمٍ، مُتَدَلِّينَ بَعِيدِينَ مِنَ النَّاسِ يَتَدَلَّلُونَ. 5أَرْضٌ يَخْرُجُ مِنْهَا الْخُبْزُ، أَسْفَلُهَا يَنْقَلِبُ كَمَا بِالنَّارِ ". توجد المعادن في المناطق المهجورة أيضاً، وفي الجبال حتى أنهم يتدللون. كما أن الأرض تنتج طعاماً، منها يخرج الخبز. ثم يقول بأن المعادن موجودة في باطن الأرض ولم تستطع الطيور بنظرها الحاد أن تراها، ولم تهتد إليها. ولا حتى الأسود استطاعت بشجاعتها أن تذهب وتدوس في هذه الأماكن النائية على المعادن. الله هو الذي يكشف عن هذه المعادن، ويمكنه حتى أن يزلزل الأرض ليعرض ما يريد أن يعرضه: الى الصوان يمد يده ويقلب الجبال. تحدث ايوب إذاً عن اللآلئ والجواهر والكنوز ولكن يوجد ما هو أثمن، إنها الحكمة، وهذا هو بيت القصيد. نتابع قرائنتنا بدءاً من عدد 12 من الفصل الثامن والعشرين من ايوب..

12«أَمَّا الْحِكْمَةُ فَمِنْ أَيْنَ تُوجَدُ، وَأَيْنَ هُوَ مَكَانُ الْفَهْمِ؟ 13لَا يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ قِيمَتَهَا وَلَا تُوجَدُ فِي أَرْضِ الْأَحْيَاءِ. 14الْعَمْرُ يَقُولُ: لَيْسَتْ هِيَ فِي، وَالْبَحْرُ يَقُولُ: لَيْسَتْ هِيَ عِنْدِي. 15لَا يُعْطَى ذَهَبٌ خَالِصٌ بَدَلَهَا، وَلَا تُوزَنُ فِضَّةٌ تَمَنَّا لَهَا. 16لَا تُوزَنُ بِذَهَبٍ أَوْفِيرٌ أَوْ بِالْجَزَعِ الْكَرِيمِ أَوْ الْيَأْفُوتِ الْأَزْرَقِ. 17لَا يُعَادِلُهَا الذَّهَبُ وَلَا الرَّجَاجُ، وَلَا تُبَدَّلُ بِإِنَاءِ ذَهَبِ إِبْرِيذٍ. 18لَا يُدَكَّرُ الْمَرْجَانُ أَوْ الْبَلُّورُ، وَتَخْصِيصُ الْحِكْمَةِ خَيْرٌ مِنَ اللَّالِي. 19لَا يُعَادِلُهَا يَأْفُوتٌ كُوشٍ الْأَصْفَرُ، وَلَا تُوزَنُ بِالذَّهَبِ الْخَالِصِ.

لربما يكون الإنسان قد نجح في الكشف عن الكنوز المخبأة في أعماق الأرض أو حتى في أعلى الجبال، ولكنه هل لهذا يكون قد وجد الحكمة أو عرفها. لا أعتقد أن كل هذا الاكتشاف والتقدم يتعلق بالحكمة والمعرفة الحقيقية بالارتباط بأصل الأرض. فالإنسان لن يجد أصل الأرض من اكتشافاته ولن يتعلم ذلك وحده. طبعاً ايوب أراد من هذا القول أن يؤكد بأن أصدقاءه لم يجدوا الحكمة. فهم لا يدركون قيمتها إذ ليس لها مكان في أرض الأحياء. الحكمة ليست

في المحيط أو في قعر البحر، وهي ليست في هذه الدنيا المتقلبة، والتي فيها يصيح الاصدقاء أعداءً. وهكذا يقول ايوب في عدد 15: " **لَا يُعْطَى ذَهَبٌ خَالِصٌ بَدَلَهَا، وَلَا تُوزَنُ فِضَّةٌ تَمَنَّا لَهَا** ". نعم، لا تشتري الحكمة بكل ذهب العالم. لقد أنفق العلماء ملايين الدولارات لإحضار بعض الأحجار من القمر ولكن هل أخذوا حكمةً منها؟ وهل عرفتهم بما يريدون أن يعرفوه؟ كلا. ويذكر أيوب بعض المعادن الثمينة بالإضافة الى الزجاج الذي كان ثميناً في ذلك الوقت، ويقول إن الحكمة لا يعادلها شيء من هذا. أيوب لم يجد الحكمة من أصدقائه الذين أتوا لتعزيته، فالحكمة الحقيقية ليست من هذه الأرض. فمن أين تأتي الحكمة إذا؟ عدد 20-22: " **«فَمِنْ أَيْنَ تَأْتِي الْحِكْمَةُ، وَأَيْنَ هُوَ مَكَانُ الْفَهْمِ؟ إِذْ أُخْفِيَتْ عَنْ عُيُونِ كُلِّ حَيٍّ، وَسُتِرَتْ عَنْ طَيْرِ السَّمَاءِ. أَلْهَلَكَ وَالْمَوْتُ يَقُولَانِ: بِأَذَانِنَا قَدْ سَمِعْنَا خَبْرَهَا** ". نعم، الإنسان بكل ذكائه وقوته وإنجازاته عاجز عن الوصول الى الحكمة الحقيقية. وربما كان الموت هو بداية معرفة الحكمة الحقيقية. والحقيقة الكاملة تقف في الجانب الآخر من الحياة. والإنسان الذي يموت لا يمكنه أن يعود الينا لنعرف منه عن الحكمة. هوديني الساحر العظيم أعطى زوجته كود أو رقماً سرياً قبل موته لتمكن من الاتصال به. ثم طلب كثيرون من الوسطاء الروحيين الرسائل التي كان يرسلها هوديني لزوجته، ولكنها كانت تسألهم أن يقدموا لها الكود السري، ولكن طبعاً دون جدوى، فلا يمكن لإنسان ذهب الى الحياة الأخرى أن يعود ليتكلم بما يحدث هناك. كل ما مضى يبين أحكام الله التي تبين حكمته وسلطانه في الطبيعة، بما في ذلك الرياح والمطر والمياه والصواعق. وأمام هذه العظمة ألا نحني رؤسنا إجلالاً؟ ألا يجعلنا نتواضع أمام الرب إلهنا؟ أرجو ذلك.